

مقدمة:

تعدّ الأنثروبولوجيا من أبرز العلوم الاجتماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، في سياق اتساع النفوذ الاستعماري الأوروبي، والرغبة في فهم "الأخر" المختلف ثقافيًا وحضاريًا. وقد نشأت هذه المعرفة في البداية ضمن إطار استكشافي وإثنوغرافي، قبل أن تتحول إلى علم قائم على الملاحظة الميدانية والتحليل البنيوي والثقافي، وقد ساهم عدد من المفكرين والعلماء الغربيين في تأسيس هذا الحقل المعرفي، من خلال محاولاتهم تفسير التنوع الثقافي وتحديد القوانين التي تحكم تطور المجتمعات البشرية في مختلف بقاع العالم وفي هذا السياق سنحاول التعرف على أبرز هؤلاء الرواد

1- إدوارد برنت تايلور (1832-1917) (Edward Burnett Tylor)

يُعدّ تايلور الأب المؤسس للأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة. وُلد في لندن ودرس الفكر الإنساني في ضوء نظرية التطور، متأثرًا بداروين ومفكري القرن التاسع عشر. اشتهر بتعريفه الكلاسيكي للثقافة بأنها «ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع (Tylor, *Primitive Culture*, 1871)». أعماله مثل *Primitive Researches into the Early History of Mankind* (1865) و *Culture* (1871) وضعت الأساس لفهم الثقافة كمنظومة رمزية قابلة للدراسة العلمية، كان يؤمن بأن الثقافات تمر بمراحل تطور من البدائية إلى التعقيد، ما جعله من رواد النظرية التطورية الثقافية. رغم انتقادات لاحقة، فقد فتح الطريق أمام التفكير المقارن في الثقافات الإنسانية، وجعل الثقافة موضوعًا علميًا مستقلًا داخل العلوم الاجتماعية.

2- فرانز بواس (1858-1942) (Franz Boas)

ألماني المولد، هاجر إلى الولايات المتحدة حيث أسّس المدرسة الأمريكية في الأنثروبولوجيا. عارض بشدة فكرة "التطور الثقافي الخطي"، وطرح بدلًا عنها مبدأ النسبية الثقافية، مؤكدًا أن كل ثقافة يجب أن تُفهم في سياقها التاريخي والاجتماعي الخاص (Boas, *The Mind of Primitive Man*, 1911)، وهنا دعا بواس إلى ضرورة البحث الميداني المباشر والدراسة الوصفية الدقيقة، فكان من أوائل من أدخلوا العمل الإثنوغرافي إلى الأنثروبولوجيا الأكاديمية. أثره العميق يظهر في تلاميذه مثل مارغريت ميد وروث بنيدكت، الذين طوروا لاحقًا مدرسة "الشخصية والثقافة". فقد نقل بواس الأنثروبولوجيا من مرحلة التأمل النظري إلى مرحلة الملاحظة الميدانية الدقيقة، وأرسى القواعد الأخلاقية والعلمية للبحث الميداني.

3- برونيسلاف مالينوفسكي (1884-1942) (Bronislaw Malinowski)

هو أنثروبولوجي بولندي يُعدّ مؤسس المدرسة الوظيفية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. عاش سنوات في جزر تروبرياند جنوب المحيط الهادئ، حيث وضع أسس المنهج الإثنوغرافي الحديث القائم على الملاحظة بالمشاركة (*participant observation*). في عمله الشهير *Argonauts of the Western Pacific* (1922)، قدّم وصفًا دقيقًا لنظام تبادل الهدايا المعروف باسم "الكولا"، مبيّنًا أن الطقوس والممارسات تخدم وظائف اجتماعية أساسية مثل التضامن والانسجام، وقد اعتبر أن كل مؤسسة اجتماعية - من الدين إلى الاقتصاد - نشأت في الثقافات العالمية لتلبي حاجات إنسانية محددة. بفضل منهجه الميداني وأسلوبه التحليلي، أصبح مالينوفسكي نموذجًا يحتذى به في التدريب على العمل الأنثروبولوجي حتى اليوم.

4- كلود ليفي ستروس (1908-2009) (Claude Lévi-Strauss)

فيلسوف وأنتروبولوجي فرنسي، ومؤسس البنيوية في الأنتروبولوجيا، درس الأساطير وأنظمة القرابة لدى الشعوب الأصلية في أمريكا اللاتينية، معتمداً على فكرة أن وراء التنوع الثقافي توجد بني عقلية عالمية. في كتابه *Les Structures élémentaires de la parenté* (1949) ثم *La Pensée sauvage* (1962)، بين أن العلاقات القرابية والأساطير تعمل مثل اللغات، أي أن لها قواعد خفية تنظمها كما تنظم قواعد النحو اللغة، رفض ليفي ستروس النظر إلى "البدائي" بوصفه أدنى من "المتحضر"، ورأى في كل ثقافة تعبيراً عن نظام رمزي عقلائي، لقد أحدث ثورة في الفكر الإنساني حين ربط الأنتروبولوجيا باللسانيات والفلسفة، وجعلها علماً للبنى الذهنية والرمزية لا للمظاهر السطحية فقط.

5- مارغريت ميد (Margaret Mead) (1901-1978)

هي عالمة أنثروبولوجيا أمريكية، وتلميذة لفرانز بواس. قامت بدراسات ميدانية في جزر ساموا وغينيا الجديدة، ركزت على التنشئة الاجتماعية والجنس، في كتابها الشهير *Coming of Age in Samoa* (1928)، درست تجربة المراهقة لتُظهر أن السلوك الإنساني ليس فطرياً بالضرورة، بل ناتج عن الثقافة والتنشئة. قدّمت لاحقاً *Sex and Temperament in Three Primitive Societies* (1935) حيث قارنت بين مجتمعات مختلفة في مفهوما للذكورة والأنوثة، كانت ميد من أوائل من طرحوا فكرة أن "الطبيعة البشرية" متغيرة بتغير الثقافة، وهو ما فتح الباب أمام الأنتروبولوجيا النفسية ودراسات النوع الاجتماعي (Gender Studies)، كما لعبت دوراً ثقافياً واسعاً في المجتمع الأمريكي، مؤثرة في الحركات النسوية والتربوية.

6- إدوارد إيفانز بريتشارد (E. E. Evans-Pritchard) (1902-1973)

أنثروبولوجي بريطاني بارز، درس في جامعة أكسفورد، وكرّس أبحاثه للمجتمعات الإفريقية، خاصة قبائل النوير والزاندي. من أهم مؤلفاته *The Nuer* (1940) و *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande* (1937). إذ اعتبر أن الظواهر الدينية والسحرية منطقية داخل أنساقها الثقافية الخاصة، رفض التفسير الوظيفي البسيط، ودعا إلى فهم المعنى الداخلي للسلوك بدلاً من الاقتصار على تفسيره الخارجي، كان لأعماله تأثير كبير على جيل من الأنتروبولوجيين مثل كليفورد غيرتز، الذين أسسوا لاحقاً المدرسة الرمزية والتأويلية، بريتشارد جعل من الأنتروبولوجيا علماً للفهم الإنساني لا للمقارنة فقط.

7- مارفن هاريس (Marvin Harris) (1927-2001)

مؤسس المدرسة المادية الثقافية، وهي اتجاه يربط الثقافة بالبنية الاقتصادية والبيئية للمجتمع. في كتابه *Cultural Materialism* (1979)، أكد أن المعتقدات والقيم تتشكل من خلال الواقع المادي: الموارد، التكنولوجيا، الطاقة، والاقتصاد، قدّم تفسيراً مادياً لظواهر مثل التحريمات الدينية على أنواع معينة من الطعام، أو أنماط الاستهلاك والطقوس، رأى أن أي تفسير ثقافي يجب أن يبدأ من دراسة البنية التحتية المادية للمجتمع، من أبرز أعماله الأخرى *Cannibals and Kings* (1977) و *America Now* (1981)، حيث ساهم في إعادة الأنتروبولوجيا إلى صلب العلوم الاجتماعية التجريبية، من خلال الدمج بين التحليل الاقتصادي والثقافي.

8- ديفيد غريبر (David Graeber) (1961-2020)

أنثروبولوجي أمريكي معاصر، جمع بين الفكر الأكاديمي والنشاط السياسي. درّس في جامعة ييل ثم في لندن سكول أوف إيكونوميكس، في كتابه المؤثر *Debt: The First 5000 Years* (2011)، أعاد قراءة تاريخ الاقتصاد والدين بوصفهما ظاهرتين ثقافيتين وأخلاقيتين قبل أن تكونا اقتصاديتين. اعتبر أن الدين والاقتصاد والسياسة ليست كيانات منفصلة، بل مترابطة

ضمن منظومات رمزية من الثقة والسلطة، كما في كتابه (2018) *Bullshit Jobs*، قدّم نقدًا لاذعًا للنظام الرأسمالي الحديث، مبررًا العلاقة بين العمل، المعنى، والسلطة. في الأخير يمكننا القول ان غريير يمثل الاتجاه الأنثروبولوجي النقدي الجديد الذي يمزج بين التحليل الثقافي والنشاط الاجتماعي، مؤكدًا أن الأنثروبولوجيا ليست علمًا للماضي بل أداة لفهم وتغيير الحاضر.

خاتمة:

إن تتبّع مسار الأنثروبولوجيا من تايلور إلى غريير يُبرز تطور الفكر الإنساني في مقاربة الثقافة والمجتمع. فقد انتقلت الأنثروبولوجيا من مرحلة الوصف التطوري الذي ميّز القرن التاسع عشر، إلى مرحلة الفهم الثقافي النسبي مع بواس وتلامذته، ثم إلى التحليل البنيوي والوظيفي مع ليفي ستروس ومالينوفسكي، وصولًا إلى الأنثروبولوجيا النقدية والرمزية في أواخر القرن العشرين، أصبحت الأنثروبولوجيا الحديثة أكثر وعيًا بذاتها وبسياقاتها السياسية والفكرية، إذ لم تعد تُعنى فقط بدراسة "الآخر البعيد"، بل أيضًا بقراءة المجتمعات الحديثة والسلطة والمعنى. لقد مكّن هؤلاء الرواد العلم من التحول من مشروع استعماري إلى أداة نقد ثقافي وفهم إنساني شامل. ومن خلال هذه المسيرة، يمكن القول إن الأنثروبولوجيا الغربية قد أرست الأسس النظرية والمنهجية التي ستؤثر لاحقًا في تطور الأنثروبولوجيا في العالم العربي، وخاصة في الجزائر، حيث أعيد توظيفها في دراسة الهوية، الذاكرة، والمجتمع المحلي ضمن سياق ما بعد الاستعمار.

المحاضرة 10: رواد الأنثروبولوجيا في الجزائر

مقدمة

تُعد الأنثروبولوجيا الجزائرية نتاج تفاعل عميق بين التجربة الاستعمارية والبحث في الهوية الوطنية والثقافية. فعلى عكس الأنثروبولوجيا الغربية التي نشأت لدراسة "الآخر"، نشأت الأنثروبولوجيا الجزائرية كمسعى لفهم الذات وإعادة بناء الوعي الجماعي بعد قرن من الاستعمار والتغريب. وقد ساهم عدد من المفكرين والعلماء الجزائريين في تطوير هذا الحقل، من خلال دراساتهم للمجتمع، والثقافة، والهوية، والذاكرة الوطنية. فيما يلي عرض لأبرز هؤلاء الرواد الذين أسسوا الفكر الأنثروبولوجي الجزائري الحديث.

أولاً: مولود معمري (1917-1989) (Mouloud Mammeri)

- السيرة والمسار العلمي:

وُلد مولود معمري في 28 ديسمبر 1917 بقرية تاوريرت ميمون بمنطقة القبائل الكبرى. تلقى تعليمه في الجزائر وفرنسا، وشارك في الحرب العالمية الثانية، ثم واصل دراسته بجامعة الجزائر. نُفي إلى المغرب سنة 1957 بسبب مواقفه السياسية وكتاباتة النقدية، ثم عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال ليصبح أول رئيس لاتحاد الكتاب الجزائريين عام 1963. تولى إدارة المركز الوطني للأبحاث الأنثروبولوجية ودراسات ما قبل التاريخ والإثنولوجيا.

- نضاله الثقافي والفكري:

كرّس معمري حياته للدفاع عن الثقافة واللغة الأمازيغية، وأشرف على تدريسها في جامعة الجزائر إلى أن مُنعت سنة 1973، ما أدى إلى اندلاع ما يُعرف بـ"الربيع الأمازيغي". وفي عام 1982 أسس مركز الدراسات والبحوث الأمازيغية في باريس ومجلة *أوال* (الكلمة). توفي في حادث سير عام 1989 أثناء عودته من مؤتمر علمي بالمغرب.

إسهاماته الأدبية والأنثروبولوجية:

كتب معمري بالفرنسية، وترجمت أعماله إلى عدة لغات. من أشهر رواياته:

(1952) *La Colline oubliée* الربوة المنسية.

(1955) *Le sommeil du juste* غفوة العادل.

(1965) *L'opium et le bâton* الأفيون والعصا.

(1982) *La traversée* العبور.

كما جمع الأشعار الأمازيغية القديمة في *Poèmes kabyles anciens* (1980)، وحقق أعمال الشاعر سي محمد أومحمد.

فكره الأنثروبولوجي:

اعتمد معمري المنهج الإثنوغرافي، واهتم بتحليل الرموز الثقافية الأمازيغية باعتبارها تعبيراً عن البنية الاجتماعية والذاكرة الجماعية. و رأى أن الثقافة الأمازيغية ليست موروثاً جامداً، بل كيان حي يتطور عبر التفاعل مع التاريخ. و تتمحور رؤيته حول الهوية الثقافية كأداة للمقاومة الرمزية، حيث اعتبر اللغة والثقافة وسيلتين لإعادة إنتاج الذات في مواجهة الاستعمار والهيمنة الثقافية. ترك أثراً كبيراً في تأسيس الدراسات الثقافية والأنثروبولوجية في الجزائر الحديثة.

ثانياً: عبد المجيد مرداسي (1945–2020) (**Abdelmadjid Merdaci**)

السيرة والمسار العلمي:

ولد عبد المجيد مرداسي في مدينة قسنطينة سنة 1945، وكان أستاذاً للتاريخ وعلم الاجتماع بجامعة قسنطينة. حصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وكرّس أبحاثه لدراسة المجتمع الجزائري وثقافته وتاريخه.

إسهاماته العلمية والفكرية

ألّف عشرات الكتب والدراسات الأكاديمية، منها:

- معجم الموسيقى الخضرية لقسنطينة - دراسة ميدانية للتراث الموسيقي المحلي.

- الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (1958-1962)

- قسنطينة، قلعة الدوار.

- نوفمبر 1954: من التمرد إلى حرب الاستقلال.

وله العديد من المقالات والعمال في الصحافة الثقافية والعلمية، وشارك في تطوير البحث الجامعي حول الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية.

فكره الأنثروبولوجي: رغم شهرته كمؤرخ وسوسيولوجي، فإن أعمال مرداسي تحمل بعداً أنثروبولوجياً واضحاً، إذ مزج بين المنهج

التاريخي والتحليل الثقافي في دراسة المجتمع الجزائري. ففي كتاباته عن الموسيقى القسنطينية، قدّم تحليلاً رمزياً للتعبير الفني كمرآة

للحوية الجماعية، مما يضعه في قلب الأنثروبولوجيا الثقافية. رأى مرداسي أن الهوية الجزائرية مركّبة ومتعددة الأبعاد - عربية وأمازيغية

ومتوسطة وإسلامية - وأن هذا التنوع هو مصدر ثرائها لا ضعفها. حيث أسس بذلك مقارنة أنثروبولوجية وطنية تنطلق من الذات الجزائرية، بعيداً عن النظرة الاستعمارية.

ثالثاً: مالك بن نبي (1905-1973) (Malek Bennabi)

السيرة العلمية والفكرية:

ولد في قسنطينة عام 1905، ودرس الهندسة الكهربائية في فرنسا، لكنه انصرف إلى دراسة الفكر والحضارة. بعد الاستقلال عُين مديراً عاماً للتعليم العالي ثم تفرغ للبحث والكتابة، وأسهم في تأسيس ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر. **إسهاماته الفكرية:**

من أبرز مؤلفاته: شروط النهضة، الظاهرة القرآنية، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، مذكرات شاهد على القرن. كان مشروعه منصباً على تشخيص أسباب تخلف العالم الإسلامي ووضع أسس للنهضة الحضارية.

أفكاره الأنثروبولوجية: رغم انتمائه إلى الفلسفة الفكرية، فإن أفكار بن نبي ذات طابع أنثروبولوجي عميق، إذ عالج الإنسان باعتباره محور العملية الحضارية، وأبرز مفاهيمه الأنثروبولوجية تشمل:

- معادلة الحضارة: الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت.

- القابلية للاستعمار: تحليل ثقافي-نفسى لتراجع الفعالية الحضارية.

- التحليل الثقافي للإنسان: انتقال الإنسان من مرحلة الروح إلى العقل ثم الغريزة عبر دورة الحضارة.

- شبكة العلاقات الاجتماعية: فهم المجتمع المتحضر كبنية تفاعلية حية.

حيث يرى بن نبي أن النهضة تبدأ من إعادة تشكيل الإنسان من الداخل، وأن التغيير الحقيقي لا يتحقق إلا بإصلاح الفكر والسلوك الجمعي.

رابعاً: مصطفى الأشرف (1917-2007) (Mostefa Lacheraf)

السيرة والمسار الوطني:

ولد في شلالة العذاورة عام 1917، ودرس في السوربون. انخرط مبكراً في الحركة الوطنية، واعتُقل خلال الثورة عندما اختطفت فرنسا طائرة قادة جبهة التحرير الوطني. بعد الاستقلال تولى مناصب دبلوماسية، ثم عُيّن وزيراً للتربية الوطنية عام 1977.

2. إسهاماته الفكرية

من أبرز مؤلفاته (1965) *Algérie, Nation et Société*، و (1976) *La Personnalité algérienne*، عمل على تحليل الشخصية الجزائرية والهوية الوطنية في سياق ما بعد الاستعمار، وكان من أوائل من دعا إلى قراءة المجتمع الجزائري قراءة علمية متعددة التخصصات.

فكره الأنثروبولوجي: لم يكن الأشرف أنثروبولوجياً أكاديمياً بالمعنى الصرف، لكنه استخدم أدوات الأنثروبولوجيا والتاريخ والسوسيولوجيا لبناء رؤية شاملة حول "الألجيرية" (L'algerianité)، يرى أن الهوية الجزائرية نتاج تفاعل تاريخي بين المكونات

العربية والأمازيغية والإسلامية والمتوسطية، ركز على أثر الاستعمار في تفكيك البنى الاجتماعية، ودعا إلى استعادة الذاكرة الجماعية كشرط لبناء دولة وطنية حديثة، كما انتقد التبعية الثقافية للمدرسة الفرنكفونية، ودعا إلى مشروع أصالة ثقافية جزائرية منفتحة على العالم، أفكاره تمثل لبنة أساسية في الأنثروبولوجيا التاريخية للهوية الوطنية.

خامسًا: بيير بورديو (1930–2002) (Pierre Bourdieu) وعلاقته بالجزائر

خلفية وأعماله في الجزائر: وصل بورديو إلى الجزائر بين 1956 و1960 كأستاذ شاب، فكانت تجربته هناك نقطة تحول في مسيرته العلمية. أجرى دراسات ميدانية عميقة حول المجتمع القبائلي، ونشر نتائجها في:

• *Sociologie de l'Algérie* (1958).

• *Le Déracinement* (1964).

• *Esquisse d'une théorie de la pratique* (1972).

أفكاره الأنثروبولوجية عن الجزائر: استندت أبحاثه إلى تحليل المجتمع القبائلي كنسق اجتماعي متوازن تقليديًا، لكنه تعرض لتفكك تحت ضغط الاستعمار والتحول الاقتصادي، طوّر من خلال هذه الدراسات مفاهيم أصبحت مركزية في علم الاجتماع الحديث:

• **الهابيتوس (Habitus):** أنماط السلوك المتجذرة ثقافيًا.

• **العنف الرمزي:** الهيمنة الثقافية غير المباشرة التي يمارسها المستعمر.

• **رأس المال الرمزي:** قيمة الشرف والمكانة في البنى التقليدية.

• **الحقل الاجتماعي:** فضاء التفاعل والصراع بين القوى الاجتماعية.

تُعد الجزائر بالنسبة لبورديو "المختبر الذي وُلدت فيه نظرياته"، إذ مكّنته من بلورة أدواته التحليلية لفهم العلاقة بين البنية والفاعل، بين الثقافة والسلطة.

خاتمة

تكشف تجربة الأنثروبولوجيا في الجزائر عن مسار فريد ومتميز؛ فبينما انشغلت الأنثروبولوجيا الغربية بدراسة "الآخر"، انشغلت الأنثروبولوجيا الجزائرية بفهم الذات: الذات الثقافية والاجتماعية التي قاومت الاستعمار، وسعت إلى ترميم هويتها التاريخية، من مولود معمري الذي جمع بين الأدب والبحث الميداني، إلى مرداسي الذي ربط الذاكرة بالثقافة، إلى بن نبي الذي جعل الإنسان محور الحضارة، إلى الأشرف الذي حلل الهوية الوطنية، وأخيرًا بورديو الذي جعل من الجزائر منطلقًا لعلم اجتماعي نقدي عالمي - تشكّل عبرهم التيار الأنثروبولوجي الجزائري كجسر بين الفعل الثقافي والتحليل العلمي.

إن هذا التراث العلمي لا يزال يشكل حجر الأساس لأي مشروع بحثي يسعى إلى فهم المجتمع الجزائري في أبعاده الرمزية والتاريخية والحضارية.